# نفسية الشعب المصرى من أغانيه

بقلم محمد محمود الصياد
مدرس الجغرافية بجامعة فؤاد الأول

## ١ — أهميـــة الأغانى

حدث أبو بكر محمد بن داود الدينورى قال : كنت بالبادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب فأضافنى رجل منهم وأدخلنى خباءه ، فرأيت فيه عبداً أسود قعيداً ورأيت قبالته إبلاً وجمالا قد ماتت و بقى منها جمل ناحل ذابل كأنه ينزع روحه ؛ فقال لى الغلام : « أنت ضيف . ولك أن تشفع لى عند مولاى ، فإنه مكرم لضيفه ولا يرد شفاعتك فى هذا القدر . » فلما أحضر الطعام قلت : لا آكل ما لم أشفع لهذا العبد . » فقال : « إن هذا العبد أفقرنى وأهلك جميع مالى » فقلت : « ماذا فعل ..!؟ » فقال : « إن له صوتاً حسناً ، و إنى كنت أعيش من ظهور هذه الجمال فحملها أحمالاً ثقالاً ؛ وكان يحدو لها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام فى ليلة واحدة من طيب نغمته ؛ فلما حطت أحمالها ماتت كلها إلا هـذا الجمل . ولـكن أنت ضيفى فلكرامتك وهبته لك . » فأحببت أن أسمع صوته . فلما أصبحنا أمره أن يحدو بى على جمل قوى ليستقى الماء من بئر هناك . فلما رفع صوته هام ذلك الجمل ، فوقعت على وجهى فما أظن أنى سمعت قط صوتا أحسن منه .. »

وسواء أكانت هذه القصة حقيقية أو موضوعة فأنها تدل — وأمثالها كثير — على ما للغناء من أثر ؛ فهو إحدى الوسائل التى تهيىء النفوس للتسامى ، وتنزع بها إلى الـكمال ، وتثير فيها النشاط والقوة . حتى لقد قال أفلاطون : «من حزن فليستمع إلى الأصوات الجميلة ، فإن النفس يخمد نورها إذا حزنت ؛ فإذا ما استمعت إلى الغناء اشتعل منها ما خمد » فليس عجباً إذن أن نتخذ الأغانى التى يرددها شعب ما ونغرم بها ، سبيلا إلى فهم نفسية هذا الشعب ، ونوراً يهدى إلى الروح التى تسود فيه .

ولم تكن الأغانى فى نشأتها عند أى أمة إلا ترجمة لعواطف شخصية ، أو تصويراً لشعور فردى خاص ، ولكنها بتطور الأمم أخذت تتدرج إلى التعبير عن خلجات عامة ، و إلى تصوير مشاعر جماعية ، ومن هنا كان سر انتشارها على الألسن وترديدها فى جميع الأمكنة ، وذلك لأن العواطف الفردية فيها صادفت هوى فى نفوس الجماعة فطربت لها ووجد كل فرد منها نفسه فى تلك الأغنية ، التى لم تعد — بعد ذيوعها — معبرة عن نزعة فردية ، بل أصبحت صدى لعواطف الشعب جميعه ، يستطاع منها دراسة نفسيته ، والحكم على شخصيته ، ومبلغ تكامل تلك الشخصية أو انحلالها وأصبح فى مقدرة التاريخ التحليلى الحديث أن يتخذ من الأغانى «الشعبية» مصدراً هاماً يلقى ضوءا غامراً على المقومات الشخصية للأمة ؛ ويحلل التيارات النفسية التى تتنازعها . وتوجه تاريخها الاجتماعى على وجه الخصوص . وفى هـذا البحث «تمهيد أولى » — نفتح به الباب لمن يريد أن يلجه — فى دراسة الأغانى الشعبية فى مصر على ضوء ما وصل إليه علم النفس الحديث من آراء ونظريات ؛ و «محاولة مبدئية» لفهم نفسية الشعب المصرى من الأغانى التى تتردد على ألسنة أفراده . ولعل فى هذه المحاولة استجابة لتلك الدعوة المباركة التى وجهها استاذنا أمين الخولى على صفحات العدد الأول من هـذه المجلة « إلى الذين يرفعون القواعد من المدرسة النفسية فى درس الأدب وتاريخه » فما الأغانى إلا لون من ألوان الأدب ، بل اللون الزاهى الوضاء من ألوانه .

## ٢ — ولع بالغناء

ولعل أهم ما يسترعى النظر غرام الشعب المصرى بالغناء إلى حد الولع ؛ فهو يتغنى بكل شىء ... بالقرآن و بالأذان ؛ وبالطقطوقة والموال ؛ بل و يغنى بالعبارات التى ليس لها معنى « كهيلاهوب هيلا » أو « هيلا ليصا ... هيلا ليصا » يتغنى بهـا جماعات العمال أثناء تأدية الشاق من الأعمال ؛ وهو يغنى فى كل مناسبة ... فى الأفراح والمآتم ، وفى حفلات الذكر والزار ؛ وفى اوقات العمل وأوقات الفراغ ؛ حتى أن

الباعة يأبون إلا أن يعلنوا عن سلعهم بنداءات موقعة أجمل توقيع ، وأغنيات دقيقة الوضع ، شجية اللحن ، ولا ينسى الكثير منهم أن يستعين بفن الموسيقى إلى جانب فن الغناء فلبائع الدندرمة زمارته ولساقى العرقسوس طاساته ولبائع غزل البنات أجراسه ؛ يوقع كل منهم على آلته المختارة فى مهارة واتقان . و يردد نداءه الخاص عذبا رقيقا أحيانا ، خشنا أجشّ فى معظم الأحايين ...

| | |
|---|---|
| فللعنب عندهم : أبيض وجميل ياعنب | أحلى من المنعاد ياعنب |
| وللتين : صلّى وجمع بدرى | يا تين |
| وللبلح : قنّى علىّ وسال | يا رطب |
| بل وللفجل : أرضك طميّه | يا لو بيا |
| من جنينتنا البحرية | ياالو بيا |
| اللى بلا سنان | يا لو بيا |
| يا كل فدان | يا لو بيا |

واكثر من هذا هناك من الأغانى ما يشتمل على أكثر من صنف من الأصناف

يا تمرحنّة رحلنا من منازلنا يا خوخ خَنُونا الحبايب وِحْنا ماخُنّا
لَمُون لَمُونا العوازلْ وحْنا مالمنا يا نخل نِخْ المطايا للفراش والنوم
يانَبْق نبقاش حبايب زى ما كنا

فما هو السبب فى حرص المصريين على هذا الجانب واحتفالهم به ؟ أجاب على هذا السؤال الاستاذ أحمد بك أمين فقال : « ربما كان سببه توالى البؤس على مصر عصوراً طويلة جعلت الطبيعة له متنفساً بكثرة الغناء وكثرة الموسيقى . ولذلك كانت الطبقة البائسة فى الأمة أكثر الناس ميلا إلى الموسيقى والغناء ؛ يغنون وهم يصنعون ، ويغنون وهم يسيرون ... ... » ثم قال : « قد يكون هـذا تعليلا يقال ولكنه لا يثبت على الامتحان ، فهل مصر أبأس من غيرها من بلاد الشرق ؟ وهل القاهرة أبأس من غيرها من القرى ؟ »[1] وبالرغم من أن الأستاذ يقلل من أهمية التعليل الذى ذكره إلا أنه فى الواقع التعليل الوحيد ؛ أما احتجاجه بأن مصر

ليست أبأس من غيرها من بلاد الشرق فهو احتجاج غير صحيح . فليست قيمة البؤس بمظاهره وإنما بمبلغ الإحساس به ... قد تكون مصر فعلا أقل بؤساً من غيرها ولكن الشعب المصرى شديد الإحساس بهذا البؤس ؛ ومن ثم كان التجاؤه إلى الغناء لينفس به عن كربته ؛ ويخفف من آلام البؤس التى يحسها أشد إحساس

## ٣ – مناطق غنائية

يمكن أن نقسم القطر المصرى إلى أربع مناطق غنائية — إن صح مثل هذا التعبير — هى منطقة الدلتا فالوادى ثم الفيوم وسيناء ... هذه المناطق لا تختلف فى معانى الأغانى الذائعة فيها ، ولا فى الجوانب النفسية التى يمكن أن نتلمسها منها ؛ وإنما يأتى اختلافها جميعاً من ناحية الموسيقى التى تصاحبها ، والألحان التى توضع فيها . ففى المنطقة الأولى يسود « الموال » وآلة الأرغول التى تتفق معه ، والتى تتوافق نغماتها مع معانيه ، وتلك هى أهم مميزات الأغانى الشعبية « الريفية » أو أغانى الوجه البحرى ؛ أما فى الوجه القبلى فتميل الأغانى « الصعيدية » فى موسيقاها نحو بلاد المغرب وربما كان للبدو دور هام فى هذه الصلة الفنية ، وفى الفيوم تظهر هذه الصلة نفسها ولكن بشكل أكثر وضوحاً . وهذا أمر طبيعى فى إقليم كالفيوم ينفصل عن الوادى أو يكاد ، ليتوغل فى الصحراء ويصبح أكثر شبها بواحة من واحاتها منه بجهات الوادى الأخرى . أما المنطقة الأخيرة وهى منطقة شبه جزيرة سيناء فأغانيها تختلف كل الاختلاف فى موسيقاها عن أغانى البدو فى الصحراء الغربية وأغانى الفلاحين فى الجهات الزراعية . ولكن أيا كان اختلاف الموسيقى المصاحبة للأغانى الشعبية فى جهات القطر المختلفة فهى كلها من النوع الرتيب الذى لا توجد فيه الاختلافات الواضحة المتلاحقة التى نجدها فى الموسيقى الغربية . وهذا أمر يتلاءم مع طبيعة المصريين كشعب يعيش فى حوض البحر الأبيض المتوسط حيث البيئة السهلة المتشابهة والمناخ المنتظم الرتيب . . .

(١) مجلة الثقافة السنة الثانية العدد ٦١ ص ٦ .

ويمكن أن يضاف إلى هـذه المناطق الأربع التى ذكرناها منطقة خامسة هى منطقة القاهرة ذات المميزات الخاصة فى أغانيها وموسيقاها التى أهمها اختلاط الألحان الشرقية بالغربية فيها . وسنحاول فى هذه الدراسة الموجزة أن نتخير الأمثلة من جهات القطر المختلفة بقدر المستطاع إلا أننا سنستبعد تلك الأغانى التى تصنعها المدنية ثم تصدرها إلى بقية أنحاء البلاد فيما تصدر إليها من أشياء ، ذلك لأن مثل هذه فى الأغانى لم تنشأ نشأة طبيعية ، بل وضعت لمناسبة خاصة . . . لتغنى فى فيلم أولتعبأ فى أسطوانة أوليشدو بها أحد أصحاب الغناء فيما يقيم من حفلات ، ومن ثم كانت دلالتها النفسية فردية محضة ، إذا دلت على شىء فإنما توضح بعض الجوانب النفسية لقائلها . ولقد تشيع هذه الأغانى حيناً وتتردد فى القرية ترددها فى المدينة ، ولـكنها لاتلبث أن تزول لأنها لم تصادف هوى أصيلاً فى نفسية الشعب ، وإنما رددها فى أول الأمر مدفوعا بميله العام إلى التقليد ، ومشاركته الوجدانية لأبناء المدنية والمتحضرين . ومازلنا نذكر جميعاً كيف سادت أغنية « ساعة مابشوفك جنبى . . » فترة من الزمن كانت تتردد فيها فى كل مكان . وماهى إلا شهور أذاع بعدها صاحبها أغنيته الأحدث « حياتى إنت ماليش غيرك . . . الخ » حتى أخذت الأغنية الأولى تتقهقر تدريجياً لتحل محلها أختها الأحدث وهكذا دواليك . وهانحن الآن نعيش فى فترة « البوسطجية اشتكوا من كتر مراسيلى . . . » ولـكنها لن تلبث أن تصبح أغنية تاريخية يوم أن تظهر أغنية أخرى تنافسها فى فيلم من الأفلام .

هذا بعكس الأغانى الشعبية التى لانعرف من قالها ، ولا متى قيلت ، ولا فيم كان قولها . ولـكنها عاشت وأصبحت تتردد فى الشمال والجنوب . فمن منا لم يردد أو على الأقل لم يسمع : « عطشان ياصبايا دلونى على السبيل » أو

ع الرمله وفرش منديله . كعب البنت ريال مدوّر .

أو

ع الرمله والحلوه تجـيله . ياما خلق ياما صور .

هذه هى الأغانى الشعبية الحقة التى يمكن أن ترسم فى ضوئها الخطوط الأولى لنفسية الشعب المصرى .

## ٤ — عقلية زراعية

يعيش الشعب المصرى فى بيئة زراعية ، معتدلة المناخ مع ميل للحرارة فى فصل الصيف ، ولـكنه مناخ قليل الأمطار إلى حد لا تستطيع معه الزراعـة أن تقوم كحرفة إلا بالاعتماد على مورد آخر للماء ، ومن هنا جاءت أهمية نهر النيل كأساس للحياة المصرية ، ومصدر لمدنيتها .

مثل هذه البيئة الزراعية المعتمدة على الرى تطبع سكانها بطابع خاص فهم شديدو الارتباط بالأرض التى هى مصدر رزقهم ، مضطرون إلى التعاون فى سبيل الحصول على الماء اللازم لريها ؛ فالمحافظة على الجسور ، وشق الترع والعناية بمشروعات الرى المختلفة كلها أمور لا يمكن أن تكون فردية ، بل لا بد لها من الأيدى العاملة الكثيرة تتعاون فى سبيل تنفيذها . ولا بد بعد هذا كله من قيـام هيئة منظمة تشرف على تنفيذ تلك الأعمال ، وتعمل على توزيع المياه بالعدل . ولذا كانت الحكومة من أهم مستلزمات البيئات الزراعية من أقدم العصور .

ليس من الغريب إذن أن تطبع العقلية المصرية بالطابع الزراعى ، وأن تكون نفسية الشعب المصرى هادئة مستقرة هدوء مناخ الوادى واستقراره ، وأن تكون الروح السائدة فيه روحا اجتماعية تعاونية . وهذا فعلا ما تظهره أغانيه الشعبية فالكثير منها يعبر عن مبلغ الارتباط بالأرض والقرية ، والإحساس الشديد بالغربة وإن قصرت . وهل منا من لم يسمع :

بلدى يا بلدى والسُّلْطه خَدِتْ ولدى
يا عـزيز عينى وانا بدّى أروح بلدى

وكثيرا ما تشيع فى تلك الأغانى فلسفة اجتماعية تصور مبلغ تماسك هذا المجتمع الزراعى ، وارتباط أفراده ؛ وتوضح كيف أن كل عضو فيه يعمل لغيره كما يعمل لنفسه ؛ وعلى أساس هذا التعاون يقوم المجتمع . وخير ما يمثل هذه الفلسفة أغنية الأطفال الشائعة :

أقول لك حـــدوته فى الزيت ملتوته
حلفت ما أقولها إلا لما ييجى صاحبها
وصاحبها ع السطوح والسطوح عايزة سلم
والسلم عند النجار والنجار عاوز مسمار
والمسمار عند الحداد والحداد عاوز بيضة
والبيضة فى بطن الفرخة والفرخة عايزة قمحة
والقمحة فى الطاحونه والطاحونه عايزه لمونه
والليمونة فى الجنينة والجنينة عايزة ميه
والميـــــة فى الوابور والوابور عاوز زيت ... الخ

يردد الأطفال هذه الأغنية الشعبية الطريفة ، فى صوت الطفولة الهادئ الوديع ، وهم لا يعلمون أى فلسفة عالية يرددونها ، وأية فكرة سامية يتغنون بها .

## ٥ — كبت ولـكن . ! !

« قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ، ويحفظوا فروجهم ، ذلك أزكى لهم ، إن الله خبير بما يصنعون . وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ، ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها ، وليضربن بخُمُرِهِنَّ على جيوبهن ، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن ... إلى آخر الآية » بهذه التعاليم وبأمثالها حدد الإسلام مدى اختلاط المرأة بالرجل ، وأخذت العادات والتقاليد مع مرور الأجيال تقوى من هذه الدعوة وتحرم اختلاط الجنسين . فلم يعد هناك مجال للتنفيس عن الغريزة الجنسية التى تعد أهم الغرائز المؤثرة فى الحياة الإنسانية ؛ تلك الغريزة القوية فى جو كالجو المصرى تساعد حرارته الشديدة على البلوغ المبكر ، وتساعد على تقوية الحساسية الجنسية عند الرجل والمرأة على حد سواء ؛ وفى بيئة تسود فيها عادة الختان للصبيان والبنات وما يترتب على ذلك من آثار . ومن ثم كان هنـاك صراع عنيف بين

الرغبتين المتعارضتين ، والدافعين المتناقضين ؛ دافع الانقياد للجماعة والارتباط بالقطيع الذى من أهم مبادئه المحافظة على الدين والخضوع للتقاليد السائدة ، ودافع الغريزة الجنسية القوى الملح . ولما كان الدافعان متعارضين فليس هناك مجال للتوفيق بينهما إلا بكبت النزعة الفردية ومنعها من السير فى طريقها الطبيعى ، وليس معنى هذا الكبت قتل النزعة بل إنها تظل قوية متحفزة للظهور إذا خف الضغط عليها ولكنها تبقى مختفية فى اللاشعور وينشأ عنها عقدة تظل مكبوتة ولكنها تؤثر فى الشعور بطرق مختلفة .

أدت إذن النزعة الدينية وتقاليد المجتمع المصرى إلى كبح جماح الغريزة الجنسية ومنعها من الإفصاح عن نفسها إفصاحاً مباشراً ، ولكن بقيت دوافع هذه الغريزة مستكنة تحرك الفرد دون وعى إلى أنواع جمة من المشاعر والنشاط لتفصح بها عن نفسها مادامت قد حرمت الطريق الطبيعى لذلك الإفصاح . ويأتى فى مقدمة صور الإفصاح دائماً الألوان المتنوعة للأدب المكشوف والفن المكشوف كالصور العارية والأغانى النابية ... الخ ولكن الأسباب التى حالت دون الإفصاح عن الدوافع الغريزية بالطريق الطبيعى تحول أيضا دون الإفصاح بهذه الوسائل . وكان لا بد من استبدالها بمظاهر أخرى يألفها المجتمع ويقرها الدين ومن هذه المظاهر تصنع العفة وإظهار السخط على كل ما يتصل بالناحية الجنسية والنفور منه ؛ فمثلا تردد الريفية أغنية : « ع الزراعيه يارب أقابل حبيبى » فتجعل مقابلة الحبيب فى هذه الأغنية أمنية من أعز أمانيها ، وتصورها صعبة المنال تدعو الله فى لهفة أن يحققها لها ؛ وتتخير الطريق الزراعى ( الزراعية ) مكانا للقاء . وهى بلاشك تحاول من وراء أغنيتها أن تغطى موقفها فهى تقابل هذا الحبيب كل يوم ... فى الصباح وفى المساء ، فى طريقها إلى الحقل وفى عودتها من السوق . وهى تقابله على الطريق الزراعى بالذات فهو الطريق الرئيسى للقرية يسلكه هو إذا سرح بمواشيه وتسلكه هى إذا ذهبت إلى الترعة بجرتها .

وقد تردد الأخرى :

هلا ( أهلا ) بالورد يا أمى هلابا يا ورد الشام يا مسلى الغلابا
يا بنت الناس الله يرحم جدودك سبيت الناس بحمار خدودك
وأنا العليل وصفوا لى نهودك بإذن الله طاب الجرح طابا
هلا بالورد يا أمى هـــلابا ... الخ .
يا بنت الناس الله يرحم أباك جفاك الناس من قلة حياك
وأنا العليل وصفوا لى هواك بإذن الله طاب الجرح طابا
هلا بالورد يا أمى هـــلابا ... الخ

هذه الأغنية التى ترددها البنات فى القرية تمثل ناحية مما تعتلج به نفوسهن ، فهن لم يعرفن الحب صريحاً خالصاً ، ولم يساعدهن المجتمع الذى يعشن فيه على إشباع غرائز التودد عندهن ، فرحن يحلمن بأن « حمار خدودهن » يسبى الناس ، وأن نهودهن دواء يوصف للعليل فيطيب . ولكنهن لا ينعمن بأحلامهن طويلا حتى يرين شبح التقاليد واقفاً لهن بالمرصاد فيشارعن فى الفقرة الثانية إلى النظر الموضوع كأنه ضرب من « قلة الحياء » وأن الناس قد جفوها لهذا السبب . . .

ومن أحسن الأغانى التى تفصح فيها نزعة التودد عن نفسها الأغنية الشعبية المشهورة

روّقْ القنانى روق عينْ برق الخزام واسقينى ياعينى
قلت لها يا ست إوْرينى على شعرك وفرجينى
قالت لى روحْ يامسكين دا شعرى سلب جمّال ياعينى
روق القنانى روق عِينْ برق الخزام واسقينى
قلت لها يا ست اورينى على قورْتكْ وفرّجينى
قالت لى : روح يامسكين دا قُورْتى هلال شعبان ياعينى

وتستمر الفتاة فى عرض مفاتن جسمها فتقول له روح يامسكين : « دا عيونى عيون غزلان » « وخدودى ورد البستان » « ورقبتى كوز العطشان » « وصدرى بلاط حمام » ... الخ ...

ويلاحظ أن نزعات التودد هذه تظهر دائما مقترنة بغريزة الحنو والرعاية فى الأغانى الشعبية فهى حينما صرفته عنها فى الأغنية السابقة قالت روح « يامسكين » وفى هذا الوصف « بالمسكنة » شعور منها بالعطف وبالحنو . وفى الأخرى .

فايتْ على دَرْبنا والتمرْ فى كمه
فايت على دربنا
غاروا عليه العوازلْ بحتروه منه
سايقه عليك النبى يَامّهْ تِلمِّيه
دا جدع صُغَيَّرْ وعينى بتخْتشى منه
فايت على دربنا .

فالهلع لإغارة العواذل والاستنجاد بالأم لمعونته لأنه ما زال « جدع صغير » كل هذا يحمل أجمل ألوان الحنو والرعاية .

هذا الاقتران الشائع بين الغريزتين فى الأغانى المصرية دليل قوى على صدق عاطفة الحب فى البيئة المصرية . فهو حب خالص ، لايقوم على مصلحة ، ولا تدفع إليه غاية . ومن ثم كان التزاوج فى البيئة الشعبية — فى نظرى — قائما على أساس سليم يضمن للحياة الانسانية سعادة ورخاء . فإذا لم تكن الحياة كذلك فيما يبدو لنا فلنبحث عن العلة فى ناحية أخرى غير الناحية النفسية .

## ٦ — قضاء وقدر . .

وتشيع فى الأغانى المصرية عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر

اللى انكتبْ ع الجبينْ لازم تشوفه العين .
وعدكْ ومكتوبكْ يا قلبى كان مخبّى فينْ .
مادام كده قسمتك ؛ بختك أجيبه منين ؟!
ســـــلم أمورك يا قلبى وامتثلْ لله .
واللى انكتب ع الجبين لازم تشوفه العين .

فنحن فى حياتنا تسيرنا قوة كتبت على جبيننا أوامر لابد لها من نفاذ . وليس أمامنا إلا أن نقف حيالها مكتوفى الأيدى ؛ وأن نحنى لها رءوسنا مستسلمين . . . ويرجع الإيمان بهذه العقيدة إلى أن الأحداث الكثيرة التى شهدها الشعب المصرى فى عصوره المختلفة ، وما عاناه ويعانيه أفراده حتى الآن من شظف العيش ، وما يتعرض له من الأخطار الكثيرة الناشئة عن الفقر والمرض العلتين المزمنتين فى المجتمع المصرى ، ونجاته من هذه الأخطار المتلاحقة ، الكافية لإهلاكه وآلاف من أمثاله ، كل هذا جعله يؤمن بالجبرية المطلقة ذلك الإيمان الذى هو فى الواقع فرار يدفع إليه الجبن من مجابهة مشاكل الحياة والكفاح فى ميادينها المختلفة . وقد أدى هذا إلى ذيوع أمرين : أولهما الدعوة إلى الصبر والحث عليه لأن الصبر مفتاح الفرج . ولأن الأرزاق ليست بالسعى وراءها و إنما هى أمور مقدرة لابد منها .

الصبر طيّبْ ، ولو كانْ مُرّ نِصبرْ لُهْ
واللّى أكلْ حلوْ أوْ كلْ مُرّ يصبرْ له
واجبْ علينا لحكم اللّهْ نصبرْ لُهْ
والصّبْر عُقْبه فَرَجْ أحلى مِن المنعادْ
والرزقْ ماهوشْ بكتر الجرى . . دا أوْعادْ .
كلام بترتيب من مـدّة ثمودْ أو عادْ
واللّى انكتب على الجبين لا بد نصبر له

ولا بدّ للصابر أن ينال مبتغاه مهما طالت الأيام ، ولا بد للمتعب من راحة يأتى بها الصبر فى يوم ما .

هَلْبتْ يا قلبى على طول الزمن ترتاحْ .
وتْنولْ وصالْ اللّى تهوى ، وفيه ترتاحْ
مصـيرْ جروحك على طول الزمن تبرَى .
ويْجيلكْ الطب ، لا تعلم ولا تدرَى .
مثل سمعناه ، منقولْ عن ذوى الخبرة .
الصبر يا مبتلى ، جعلوه للفرج مفتاح .

أما الأمر الآخر الناشىء عن الإيمان بعقيدة القضاء والقدر ، فهو الاستسلام وقبول الحياة كما هى بحلوها ومرها ، وهذا أمر يؤدى دون شك إلى انعدام المثل العليا ويضعف من قوة المجتمع الانتاجية .

أضحكْ من الفم وابْكى من صميم قلبى .

ونُوحْ مِن الروحْ ، وا كتمْ كل دا فى قلبى .

وفضلتْ أكتم أسايا لما الزمن مالْ بى وأخاف من الخصمْ لو أسكت عليه يوم

صابر عليك يا زمن ؛ دا احتكام ربى !

فهذا الصبر على الزمن ؛ وكتم الأسى على مضض ، فيه ذلة وخنوع . وكان الأحرى أن نثور على الزمن لنوقفه عند حده ، ولنصل رغم أنفه إلى المثل العليا التى نرسمها .

## ٧ — شعور بالنقص

والشعب المصرى شديد الشعور بالدونية نتيجة لانعدام التوافق الاجتماعى بين أفراده والوسط الذى يعيشون فيه . ويظهر هـذا الاحساس فى كثير من العادات والأمثال المصرية فالغالبية العظمى تعتاد التوكأ على العصى وهذا دليل على أن هؤلاء الأفراد لا يثقون بأنفسهم ، وإنهم يلتمسون دائماً المعونة فى شىء ما . وكثيراً ما يرددون الأمثال التى تقلل من قيمة العمل وتجعل النجاح فى الحياة مسألة حظ فقط « فقيراط حظ خير من فدان شطاره » .

وليست الأغانى الشعبية بأقل تصويراً لهذا الاحساس من العادات والأمثال . فكثير منها يبدو فيه هذا الاحساس بوضوح ويبدو فى مظاهر مختلفة . ففيها المجتمع قاس تسود فيه «الأندال» و « الدنيا غرورة تجيب اللى ورا قدّام » والسبع أصبح يقول للكلب يا سيدى بعد أن حكمت عليه الأيام

حكمتْ على السبعْ ؛ راحْ للكلبْ عند الكومْ !

لما صحى الكلب ؟ قالْ لهُ السبع : صَح النومْ ! !

أنا أسألك يا ربْ . . . يا مجرى بحـور العومْ
ترجّـعْ السبعْ يخطرْ زىٍّ عـاداته
وترجعْ الكلب ينبشْ فى ترابْ الكومْ

أو

سَبع الفلا دخـل الغاب . وحـلْ الهمْ .
والفـارْ بنى لهْ جنينه ، وردهـا ينشمْ
والعمْ عمـلوه بدايه ، والبـدايهْ عمْ
يالله العنك يا زمانْ ؛ أصبحتْ بالهمْ .
تأخرْ ولاد السبوعهْ وتقدّم ولاد الكلاب تحكم
شوفْ الكلب لما حكمْ قالْ له الأسدْ ياعمْ .
ثم ماذا ؟! ثم . . . .
منْ وجفِ حالى بدورْع الشجىَ ما لجاه !
ولا التجيشْ البياته حتىّ فى ملجـاه .
دى دنية الشومْ ؛ لا خلتْ مالْ ولا جاه .
فيهـا الأصيلْ ينظلمْ ، والندلْ يتهنىّ .
من غيرْ ما يشجى يلاجىَ كل يومْ مال جاهْ

هذه الحالة التى يرى عليها المجتمع كيف يعالجها وكيف يجابه مشاكلها ؟ إنه أضعف من أن يثبت أمامها فكيف له بعلاجها ؟! ومن ثم كان لا بد من الاستعانة بآخرين ؛ كان لا بد له من الاستعانة بأشخاص رمزيين يأتى فى مقدمتهم « الشيخ العالم » « وطبيب الجَراح » ثم « قاضى الغرام ». فيجد عندهم الدواء الشافى أحياناً ، وقد لا يجده أحياناً أخرى . فهو بعد أن يسأل « تاجر الود » عما إذا كان شجر الوداد قد قل حتى انعدم أصحاب الوفاء وأهل المروءة يلجأ إلى الشيخ الذى « قلبه فى العلوم صندلْ » فلا يجد لديه إلا حكمة سائرة «من عاشر الندل بعد الغندره يندل».

يا تاجر الود . هـو الود شجره قل .

ولا سواقى الوداد نزحت وماءها قل .

أيام بنشرب عسل ؛ وأيام بنشرب خل .

وايام بنلبس حرير ، وايام بنلبس فل .

وايام ننام ع السرير ، وايام ننام ع التل .

وايام بتيجى على ولاد الأصول تندل .

سألت شيخ عالم ، وقلبه فى العلوم صندل .

سند الكتاب من يمينه ؛ والتفت قال لى :

من عاشر الندل بعد الغندره يندل .

ويرى ديار حبيبه قريبة ولكن ما إليها وصول فيهرع إلى الشيخ العالم فلا يجد عنده إلا النصيحة بالصبر حتى «يعدلها» الله .

أقوم من النوم أقول يارب عدِّلها .

بلد حبيبى قصاد عينى ، ومش قادر أعدى لها .

سألت شيخ عالم بيفهم فى معادلها

رمى الكتاب من يمينه ، والتفت قال لى :

بين الصباح والمسا ، ربك يعدِّلها .

أما طبيب الأجراح فإنه يجأر إليه بالشكوى . . . الشكوى ممن؟! من «الأندال» الذين قلبوا له ظهر المجن فكانوا السبب فيما يقاسى من شقاء . . .

أكمْ يا طبيب الجَراح م السقم كفَّانى .

افتح سلاحك ، وخدْ م الجرحْ كفَّانى .

البين ضربنى على الخدين ، وكفانى

خـلانى بعد الغندره والعزّ أندل .

حتى خليلى وطِى فى الطبعْ واندل من بعد ما كنت باركب ع العدا واندل

آدى اللى جَرى لى ، من الأندال كفَّانى

ولكن هذا الطبيب الذى يستعديه على « الأندال » هو فى نظره « ندل » مثلهم يترك جرحه بدون علاج وينكر الدواء مع وجوده .

وكان جرى إيه لو الطبيب جه لحد البيت وشافانى

دنا كنت خفّيت ، وردّيتْ مثلْ عاداتى وشافانى

إلا طبيب « ندل» جه لحد البيت واتخفى ، وشاف آنى

دنا جدع جدّ فى وسط الرجال معدودْ

والجرح سالت مِدّتُه جارية ، ومعْ دودْ

وادى طبيب لِجرْاحْ نكر الدوا المعدود

والرب موجودْ . عالمْ بحالاتى وشافانى

ويزداد فيه الشعور بالدونية فيحاول أن يغطيها بالحديث عن نفسه و بأنه « من صُغْر سِنّهْ وهو للرجال خدام » وأنه « يقعدْ فِى وِسْطْ الرجالْ يحكى كلام مظبوطْ ». وأنه مجبول على الشجاعة والحذر والدهاء حتى أنه يستطيع العبث بالحكومة وقوانينها وهو فى الواقع أكثر الناس خشية للحكومة وأعظمهم خوفاً من القوانين . وفى « موال الأدهم » الشهير يظهر هذا الجانب النفسى بوضوح . فالأدهم تلميذ بالمدرسة يصله خبر إغتيال عمه فيعود إلى قريته مسرعاً

وراح على ابن العــدو فسّخوا بايديه

وقتل ثلاثة من اللّى كانوا قاعدين حواليه

جت الحكومهْ تقول له : عملتْ كدا ليه ؟ !

قال لها «جتك خيبه يا حكومه» لما قتل عمى عملتى إيه ؟!

ويحكم على الولد بالإعدام جزاء فعلته ولكن الأغنية تأبى إلا أن تغيّر الحكم بالسجن لمدة ست سنوات لأن

أهل الولد كان عندهم المال عدِّيهْ

وكانوا كلهم بهــوات وأغْنيّه

دَفَعُمْ للدهم بدال الجنيه ميّه

ففى هذه الأبيات يتجلى مركب النقص فالفقر الشائع والإحساس به أدى إلى توهم أن المال يستطيع أن يفعل كل شيء وأن يتدخل حتى في أحكام القضاء .

ويحاول « الأدهم » فى سجنه أن يتعرف على قاتل عمه . فإذا ما عرفه قتله لا بحد السنان ، ولكن بطول اللسان .

وقعد معاه من الصبح للضهر طق منه مات
مكفهش موته ، قام فســـــــخو بإديه

ثم يعترف « الأدهم » بجريمته متحديا الحكومة والقانون

جت الحكومة تقول له يادهم عملت كدا ليه ؟ !
قال لها جتك خيبه يا حكومه لما قتل عمى عملتى إيه ؟ !
أنا قتلته يا حكومة وأنا فى سجنكم موجود ! !
والرب موجود ، مش عاوز بينه وشهود .

ويفر « الأدهم » من السجن وتحاول الأغنية بعد ذلك أن تصور مكر الأدهم ودهاءه فى محاربة الحكومة فهو يعلنها بمقره ثم يقابل المأمور متخفيا فى زى امرأة مرة ثم فى زى « خواجة » مرة أخرى . ويسأل المأمور عمن يبحث فإذا أجاب بأنه يبحث عن « الأدهم » أجاب الأدهم نفسه فى خبث :

أنا لَدْهم يا حكومه أجيبه منين ؟ !
أنا لدْهم مجمعْ م الرجالْ ألفين !
أنا لدْهم قاتلْ لى م الولادْ اثنين .
أنا لَدْهم بدى أشوفه وتاخدوا من عنيّه عين !

وأخيراً تعجز الحكومة فتلجأ إلى أعز أصحاب « الأدهم » الذى يستطيع بخيانته وغدره أن يقضى على الأدهم فغدر الصديق وخيانته و « الندالة » وما يترتب عليها من آثار هى العلة الوحيدة التى يستطاع بها تبرير كل شيء . ولهذا يشير « الأدهم » وهو يلفظ نفسه الأخير .

سادس رصاصه جتْ بين القلب والصُّره .
نزل الدم عوم ، خدله فى الحصا جَرَّه .
قال ما مُتْ يادهم ما عَدْلَكْ فى الخلايقْ جُرّه.
أمانه يا من عشت بعدى متأمنشى للدنيا .
ما فيهاش ولا صاحب إلا يجيلك الأذى بإديه .
والحق عندى أنا اللى وريت ابن المره جره .

## ٨ — انفعال صادق

نتج عن هذا كله أن أصبحت الأغانى المصرية يشيع فيها الانفعالات الأليمة فهى فى معظمها شكوى وأنين ، وغدر زمان وظلم حبيب . . فـ

يابتاعْةِ البختِ ؛ شُوفى لى بختى
ما عَدْشِ بيجى جرى إيه يا اخْتى! يا وعدى عليك يا صعيدى

ثم . . .

شيّعت له جوابين ولا جواب جانى
وديت حبيبى فين خاين يا زمانى يا بوى

وأخيراً . . .

ياللى غرامك جرحنى تعالى جنبى وريحنى .
علشان بَحِبّك تفضحنى يابو الحنّه ، دم الغزال .
دم الغزال ....

ولكن هذه الأغانى وما تبعته من انفعالات تحول دون إدراك الجانب السار من الحياة والتمتع بمباهجها وتدفع النفس إلى نوع من السخط والتبرم ينتهى بالخضوع والاستسلام ... هذه الأغانى رغم هذا تمتاز بصدق الانفعالات التى تثيرها وقوتها واستمرارها ، فهى انفعالات منبعثة من إحساسات لا زائفة ولا مصطنعة . فإرسال خطابين إلى الحبيب دون وصول رد على أحدهما سبب أصيل لإثارة القلق النفسى إثارة حقيقية صادقة ؛ وغياب الزوج أو الحبيب شهوراً طويلة وانقطاع أخباره زمناً

أمر يبعث على اللهفة التى من مظاهرها الاستعانة « بضاربة الرمل » و« فاتحة البخت » لمعرفة سبب هذا الغياب الطويل ؛ وإنها للهفة صادرة من الأعماق حقاً ؛ لا تصنُّع فيها ولا رياء .... ثم ذلك السؤال الهادئ الرصين يلقى فى لهجة عتاب برىء : « عاشان بحبك تفضحنى؟ » سؤال فيه بساطة ترجع إلى أنه منبعث من عاطفة صادقة و إحساس عميق . وفى هذا تختلف الأغانى الشعبية الحقيقية عن الأغانى التى تصنعها العاصمة وتصورها فهى بعيدة عن القلوب لأنها لم تصدر من القلوب . فمن الذى يتأثر بقول عبد الوهاب

أحـــب روحـــى اكمن روحى بتحبك .
وأحـــب نوحـــى اكمنه بيحنن قلبك

أوصادق هو حقاً فى هذا الكلام ؟! أظن لا ....قد تكون الأغنية رقيقة الألفاظ؛ مشجية الألحان ، ولكنها لن تصل إلى الأعماق ، لأن المبالغة فيها ظاهرة واضحة ، والعاطفة فيها غير صادقة . وهى فضلا عن هذا وذاك عاطفة ضعيفة ،لا روعة فيها ولا قوة ، ولا أقصد بقوة العاطفة حدّتها وثورتها فقد يكون الانفعال الهادئ أعظم أثراً لإصالته وعمقه فأغنية :

منين أجيبـــــه الحـــلو أبو دَقّه .
منين أجيبـــــه صـعيدى واترقّى .

أكثر قوة وأعظم عمقاً من أغنية « ياللى نويت تشغلنى ، طاوعنى وابعد عنى ، إن حبيتك ، يبقى يا ويلك ، من حبى » المليئة بالتهديد والمناداة بالويل والثبور وعظائم الأمور بغير ما سبب إلا أنه نوى أن يشغله » . وكأنما أصبح الحب صفقة تجارية ، يفكر فيها أولاً ، ثم يحكم العقل هل تنفذ أم لا ... فإن رضى فبها ونعمت، و إلا فلا داعى للحب ، وليرض من الغنيمة بالإياب .

## ٩ — خلاصة عامة

و بعد .... فقد نوهت فى مقدمة هذا البحث بأنه ليس عرضاً عاماً للأغانى الشعبية ولا دراسة مفصلة لنفسية الشعب المصرى ، و إنما هو بحث موجز عرضت فيه لأهم النواحى التى يمكن أن توجه إليها العناية ، وتلخيص المظاهر الرئيسية لنفسية الشعب كما تدل عليها أغانيه . وعليه فمن العسير تلخيص هذا التلخيص ، ولكنى مع هذا سأحاول تلخيص المبادىء التى يقوم عليها وعرضها فى صورة أحكام موجزة لا أدعى أنها نهائية ، بل مازالت قابلة للمناقشة والتمحيص

ثابت أن لكل أمة خواصاً نفسية ثابتة مرجعها إلى الجنس ووراثة الصفات، يوجد بجانبها خواص من فعل البيئة ؛ ومن الجميع ينشأ المزاج العقلى للأمة .. وهو فى مصر مزاج زراعى هادىء يطبع كل مظاهر حضارة الأمة التى هى الدلالة الخارجية لهذا المزاج .

المصريون شعب مولع بالفنون الجميلة بصفة عامة ، تشهد بذلك عصور التاريخ المختلفة ، وهذا يرجع إلى نوع الحياة التى يحيونها ، فقد تركت لهم فرصة يتجهون فيها إلى الجانب الروحى من الحياة ، ولكنهم أشد ولعاً بالغناء منهم بالفنون الأخرى وذلك لما يحسونه عن بؤس وشظف عيش ، ففى الغناء متنفس يخفف من آلامهم ولوعتهم .

حالت التعاليم الدينية السائدة دون التنفيس عن الغريزة الجنسية فاضطر الشعب إلى كبتها ، ويظهر أثر هذا الكبت واضحاً فى الأغانى الشعبية ، التى كثيراً ما تقترن فيها غريزة التودد بغريزة الحنو والرعاية مما يقوم دليلا على أن التزاوج فى مصر يقوم على أساس سيكلوجى صحيح . فاذا كانت له عيوب فلنبحث عنها فى ناحية أخرى غير الناحية النفسية .

أثرت أحداث التاريخ التى شهدها الشعب المصرى ، والمستوى المعيشى الذي يحيا فيه على نفسيته فجعلتها نفسية جبرية تؤمن فى استسلام بالقضاء والقدر ، ويشيع

هذا فى الأغانى الشعبية بوضوح وربما كان هذا الإيمان سبباً أصيلا من أسباب انحطاط المقدرة الانتاجية للشعب .

توضح الأغانى الشعبية أن الشعب المصرى شديد الشعور بالنقص ، وأنه يحاول فى أغانيه أن يبحث عن طريق يعوض به عن هذا الشعور . ولن ترتد إلى هذا الشعب ثقته بنفسه ، وشعوره بمركزه إلا إذا ارتفع مستوى معيشته ، وحوربت الأمراض الثلاثة التى تفتك به ... الفقر والجهل والمرض .

وأخيراً تشيع فى الأغانى المصرية العواطف الأليمة التى تحول دون الاستمتاع بمباهج الحياة ، وتدفع النفوس إلى ألوان من السخط واليأس ما كان أغناها عنها لو فهمت الحياة على حقيقتها ، ونفذت إلى الصميم منها. ولكن مهما يكن من شأن هذه العواطف فهى صادقة قوية ثابتة .

•

*Résumé*

**PSYCHOLOGIE DU PEUPLE EGYPTIEN D'APRÈS SES CHANSONS POPULAIRES**

Par

**Mohamed M. El-Sayyad**

Lecteur de Géographie à la Faculté des Lettres,
Université Fouad Ier. Le Caire

Comme contribution à la Psychologie Ethnographique, l'auteur essaye de dégager les grands traits de la psychologie du peuple égyptien d'après ses chansons populaires. Il ne s'agit pas de celles lançées par les chansonniers, mais de celles, non écrites, qui se transmettent oralement dans les villages et les quartiers populaires des grandes villes.

Après avoir montré l'influence du rythme et de la mélodie sur la mentalité populaire (cris des marchands ambulants etc . . . ), il divise l'Egypte en quatre régions : le Delta, la vallée, le Fayoum et le Sinaï, d'après, non le contenu de la chanson, mais du rythme et de l'instrument musical utilisés. Puis ayant montré l'importance du régime agricole dans

la détermination du caractère du peuple égyptien, il dégage, de ce caractère, les principaux traits suivants:

Amour des beaux-arts dû au genre de vie; recours à la chanson et à la mélodie pour oublier les misères de chaque jour; refoulement de la sexualité sous l'influence de la religion et des coutumes; par des exemples, l'auteur montre les effets de ce refoulement et remarque que souvent l'expression érotique est accompagné d'un sentiment d'affection et de sympathie bienveillante.

Les événements historiques, l'état de servitude, l'abaissement du niveau de vie ont empreint l'âme égyptienne d'un caractère de fatalisme et d'abandon au sort. C'est à ce caractère, très visible dans les chansons, qu'est dû l'abaissement de la capacité de production du peuple égyptien. Un autre sentiment très visible est celui d'infériorité; d'où tentative de compensation par l'expression de sentiments d'hostilité et d'aggressivité vis-à-vis de la force publique. Enfin prépondérance des sentiments de détresse et de tristesse, des expressions de douleur, expressions de révolte et de désespoir à la fois.